جهود الدكتور زهير غازي
زاهد في دراسة الصوت القرآني

الأستاذ المساعد الدكتور
سيروان عبد الزهرة الجابي
الباحثة
رباب موسى نعمة
جامعة الكوفة - كلية الفقه

جهود الدكتور زهير غازي زاهد في دراسة الصوت القرآني

الأستاذ المساعد الدكتور
سيروان عبد الزهرة الجابي
الباحثة
رباب موسى نعمة
جامعة الكوفة - كلية الفقه

توطئة:

لقد كان العلماء القدماء على وعي تام ودراية عالية بعلم الأصوات؛ ذلك بأننا نجد في مصنفاتهم التخصصية إشارات وتلميحات متناثرة يمكن ان تدرك هنا أو تمسك هناك، تدل دلالة جلية على إدراكهم لقيمة الأصوات اللغوية في الخطاب العربي.

ويمكن القول إنَّ فكرة الصوت وما يؤديه من دلالة قد حظيت بأهمية بالغة عند العرب، فقد بدأ البحث عن طبيعة العلاقة بين جرس الكلمة ومعناها الذي ينسق معها عندهم في وقت مبكر، منذ أن اهتموا قراءة النصوص القرآنية والنظر في بيان إعجازها، واستنباط الأحكام الشرعية منها؛ ذلك بان العقل العربي قد انشغل بالنص القرآني مُنذُ لحظة نزوله والى ما يعاصرُنا من حاضر وقد اتخذ هذا الانشغال مراحل مختلفة ووجوه متعددة على وفق عامل الزمن ومراحله؛ فأوّل ما شدَّ ذلكَ العقلَ هو مسألة الايمان بهذا النص أي الاعتقاد بصدقه من حيث جهة النزول ومن حيث صحة ما يحتويه من مضمون، فوَجَدَ هذا النصُّ تارةً قبولاً سهلا الى قلوب الناس فسلك سبيله اليها من دون استئذان، وواجهة تارةً أُخرى مواجهةً صعبةً وعراقيل عديدة في عملية السماح له بالولوج الى نفوس أُناس آخرين، على حين بقي الطريق أمامه مغلقاً تماماً الى البعض من الناس احجاماً وامتناعاً منهم من دون علة فيه البته؛ بل العلةُ كامنةٌ في الممنوع منه بذاته عناداً واستكباراً؛ ولا أدلُّ على هذا

القول مما قاله الوليد بن المغيرة في هذا التعبير المعجز؛ إذ يقول: ((واللهِ ما هو من كلام الجن ولا هو من كلام الانس في شيء إنَّ له لحلاوة وإنَّ عليه لطلاوة وإنَّ اعلاه لمثمر وإنَّ اسفله لمغدق وإنَّه ليعلو ولا يُعلا عليه))[١].

بعد ذلك انتقل العقل العربي الى حين آخر من الانشغال بهذا النص؛ إذ تغير نمط التناول لهذا التعبير من قضية الايمان به الى مرحلة التأمُّل فيه وحفظه فكثُر الحفّاظ وظهر القُرَّاء واهتموا بضرورة صحّة نطقه والإنعام في تجويد حروفه والانصراف الى حسن بيانه في القراءة[٢]؛ وهذا يدل على إدراك عال منهم لأهمية الصوت ودلالته في القرآن الكريم، وحفظ نقاء العربية وصفائها، وحل كثير من إشكالاتها الدلالية، ببيان القيم التعبيرية للأصوات وهي منتظمة داخل البنيات أو التراكيب [٣].

ويعد الخليل منبع الاتجاه الذي تولى دراسة القيمة التعبيرية للأصوات، ومدى اتفاق خصوصية المعنى وجرس الحرف المختار، فقد شغلته الألفاظ المعبرة عن أصوات المسموعات، ورأى فيها اصواتاً محاكية للطبيعة، وحاول إثبات نوع من الصلة الطبيعية بين أجراس الحروف ودلالاتها من جهة، ثم بين أنغام الألفاظ ومعانيها الكلية من جهة أخرى، وفي ذلك النظر تبدو الأصوات والصيغ مترابطة مع الدلالة، وكأن هناك نتيجة ضرورية للإيحاء من تتابع الحروف أو طريقة بناء الكلمات [٤].

فقد ذكر الخليل صلة الدلالة بالصوت وحيثيته في بناء الكلمة بما نصه: ((كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة مدّاً فقالوا: صرّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صَرصَرَ))[٥]، وفي هذا القول إشارة واضحة بأن أصوات الكلمة تحكي مدلولها، فكلمة (صرّ) صورة لفظية لصوت الجندب المستمر دون توقف أو انقطاع، وكلمة (صَرصَرَ) صورة لفظية لصوت البازي المتقطع[٦]، وإذا تأملنا مقولات الخليل أدركنا بأنه كان يذهب إلى وجود علاقة طبيعية بين اللفظ ومدلوله، والراجح أن الخليل أول من تنبه على ذلك وأشار إليه، دون إن يصرح به[٧].

وما يمكننا قوله أن الخليل استطاع بحسه اللغوي الدقيق، أن يدرك الوشيجة بين الأصوات والدلالات، وكان له فضل السبق إلى القول بوجود هذه الوشيجة بين أصوات الطبيعة ودلالاتها، وهو ما يطلق عليه اللغويون المحدثون بـ (الدلالة الصوتية) [٨].

ونجد أن سيبويه قد أصَّلَ سبق الخليل إلى هذا الباب، فهو يقول: ((هذا باب (أفعوعلن) وما هو على مثاله مما لم نذكره، فقالوا: (خشن) ، وقالوا: (اخشوشن). وسألت الخليل فقال: كأنهم أرادوا المبالغة والتوكيد، كما أنه إذا قال : (اعشوشبت الأرض) فإنما يريد أن يجعل ذلك كثيراً عاماً قد بالغ)) [٩].

يلاحظ هنا أن الخليل وسيبويه قد توافقا على أن زيادة المبنى تؤول إلى زيادة المعنى، وعقد سيبويه باباً في كتابه تحدث فيه عما جاء على مثال واحد حين تقاربت المعاني[١٠]، ومن ذلك قوله: ((ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد، حين تقاربت المعاني قولك: النزوان، والنقزان، وإنّما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع، ومثله العَسَلان والرتكان... ومثل هذا الغليان، لأنه زعزعة وتحرك، ومثله الغثيان، لأنه تجيش نفسه وتثور، ومثله الخطران واللمعان، لأن هذا اضطراب وتحرك، ومثل ذلك ،الصخدان والوهجان، لأنه تحرك الحر وثؤوره ، فإنما هو بمنزلة الغليان)) [١١]؛ يشير سيبويه في نصه هذا إلى الدلالة المركزية المشتركة التي توحي بها البنية الصوتية لتلك المصادر (النزوان، والنقزان، والقفزان...) إذ اشتركت المصادر جميعاً في بنية صوتية واحدة وهي صيغة (فَعَلان) بما لها من سمات صوتية خاصة فدلت على معنى موحد في الهيأة.

ويُعدّ ابن جني أكثر المتحمسين لفكرة العلاقة بين الصوت والدلالة وهو بحق إمام القائلين بوجود صلة بين الألفاظ ومعانيها، فقد بسط الحديث فيها، وفصل القول في دقائقها، ومنحها قيمتها الحقيقية، فالألفاظ عند ابن جني دليل المعاني، إذ يقول في (الخصائص): ((فأول ذلك عنايتها - أي العرب - بألفاظها، فإنها لما كانت عنوان معانيها، وطريقاً إلى إظهار إغراضها ومراميها

أصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها في السمع، واذهب بها في الدلالة على القصد)) [١٢].

وقد علل ابن جني لمناسبة الألفاظ لمعانيها تعليلاً جيداً بقوله: ((فقالوا بتوالي حركات المثال(أي الصيغة أو البنية) توالي حركات الأفعال)) [١٣].

ويقول في (المحتسب): ((واعلم أن العرب تقارب بين الألفاظ والمعاني، إذ كانت عليها أدلة وبها محيطة... ونحو ذلك من قولهم في تركيب: ع ص ر، ع س ر، ع ز ر، فالعصر شدّة تلحق المعصور، والعسر شدّة الخُلق، والتعزير للضرب، وذلك شدّة لا محالة، والشدة جامعة للأحرف الثلاثة)) [١٤].

وقد احتذى حذو ابن جني في هذه القضية ابنُ الأثير (١٣٧ هـ)، فقد عرض لفكرة العلاقة بين اللفظ والمعنى تحت عنوان (في قوة اللفظ لقوة المعنى) [١٥] فهو يرى أن نقل اللفظ، والعدول به من وزن إلى وزن آخر أكثر حروفاً منه لابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً ويعلل ذلك بقوله: ((لأن الألفاظ أدلة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لا نزاع فيه، لبيانه وهذا النوع لا يستعمل إلاّ في مقام المبالغة)) [١٦].

ولابن فارس جهد طيب في موضوع العلاقة بين الصوت والدلالة لا ينبغي تجاهله، فقد سحرته اللغة، وتكشفت له عن أسرار عميقة لا يبلغ غورها إلاّ المفتونون بتثقيف الكلام؛ ولكنه لم يستنبط من هذه الأسرار نظريات كاملة؛ بل اكتفى بإشارات تدل على أنه وقف على أسس النظريات الحديثة، أو مرت به إرهاصاتها [١٧].

يقول ابن فارس في مادة (أحّ) : ((وللهمزة والحاء أصل واحد، وهو حكاية السُّعال وما أشبهه من عطش وغيظ)) [١٨]. وفي هذا القول ينبه ابن فارس على أن اللفظة تحكي صوت السُّعال، كأنما كانت العرب تدرك ما في اللفظ من كشف عن المعنى؛ أو كأنما تعمدت إن يكون لهذا الصوت هذا المعنى [١٩].

ولعل أكثر لغويي العربية وضوحاً بعد هؤلاء في مجال العلاقة بين الصوت والدلالة جلال الدين السيوطي الذي استوعب آراء سابقيه، فعقد في (مزهره) حديثاً عن المناسبة بين اللفظ ومدلوله، وذلك في المسألة العاشرة من الفصل الأول من الكتاب المشار إليه[٢٠]. ومن اجمع كلماته للموضوع قوله: ((وإما أهل اللغة العربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني)) [٢١].

وفي حنايا حديثه أشار السيوطي إلى آراء اللغويين الذين سبقوه، ثم ختم عرضه لهذه الآراء بملاحظة يقول فيها: ((فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني، فجعلت الحرف الأضعف فيها والأنين والاخفى والأسهل والاهمس لما هو أدنى واقل وأخف عملاً أو صوتاً، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والاجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حساً، ومن ذلك المد والمط، فأن فعل المط أقوى، لأنه مد وزيادة جذب فناسب الطاء التي هي أعلى من الدال)) [٢٢].

وإذا انتقلنا إلى الفكر اللغوي العربي الحديث، وجدنا أصداء العلاقة بين الأصوات ودلالاتها تتردد لدى بعض اللغويين العرب، فقد ناقشها عدد منهم، ويأتي احمد فارس الشدياق فقد ألف عدة كتب كان جل اهتمامه فيها منصباً على العلاقة بين الأصوات ودلالاتها، وقد أشار الشدياق إلى هذه العلاقة في كتابه المشهور (الساق على الساق)؛ إذ ذكر في مقدمته ((أن كل حرف يختص بمعنى من المعاني دون غيره، وهو من أسرار اللغة العربية التي قل من تنبه لها، وقد وضعت لهذا كتاباً مخصصاً سميته {منتهى العجب في خصائص لغة العرب})) [٢٣].

ويقدم د. صبحي الصالح لموضوع الدلالة الصوتية بأسلوب يدل على أنه من أكثر لغويي العربية تحمساً للموضوع، فقد خصص في كتابه {دراسات في فقه اللغة} باباً للحديث عن مناسبة أصوات العربية لمعانيها، يقول فيه: ((قلما أفاضوا - يعني علماءنا القدمين - في دراسة هذه المادة اللغوية الصوتية عرفوا

لكل حرف صوته صفة ومخرجاً، مثلما عرفوا له إيحاءه دلالة ومعنى)) [٢٤]، ثم يقول: ((إما الذي نريد الآن بيانه فهو ما لاحظه علماؤنا من مناسبة حروف العربية لمعانيها، وما لمحوه في الحرف العربي من القيمة التعبيرية الموحية... فكل حرف منها يستقل بإحداث صوت معين، وكل حرف له ظل وإشعاع، إذ كان لكل حرف صدى وإيقاع)) [٢٥].

ويؤيد محمد مبارك فكرة العلاقة بين الصوت والدلالة باندفاع، ويرى في ثقة تامة أنه إن لم يدل الحرف بصوته على المعنى قطعاً، فالصوت يوحي به على الأقل، يقول: ((ونستطيع أن نقول في غير تردد أن للحرف في اللغة العربية إيحاءً خاصاً، فهو إن لم يكن يدل دلالة قاطعة على المعنى، يدل دلالة اتجاه وإيحاء، ويثير في النفس جواً يهيئ لقبول المعنى ويوجه إليه ويوحي إليه)) [٢٦] ثم في موضع آخر يقول: ((أن للحروف قيمة دلالية ووظيفية في تكوين المعنى وتحديده، هي في العربية أظهر وأوضح منها في اللغات الأخرى))[٢٧].

وإذا كان الحرف عند الشدياق يوحي بدلالة الكلمة، فإنَّه عند جرجي زيدان ينوع المعنى الأصلي للكلمة التي تشترك مع ألفاظ أخرى في حرفين هما الأصل المتضمن المعنى الأصلي، إما الحرف الثالث - الزائد على الأصل - فهو ينوع المعنى تنويعاً طفيفاً[٢٨]. ويضرب مثالاً على ذلك فيقول: ((قط وقطب وقطف وقطع وقطم وقطل، جميعها تتضمن معنى القطع، إلاّ أن كل واحدة منها استعملت لتنوع من تنوعاته، والأصل المشترك بينها {قط} وهو بنفسه حكاية صوت القطع كما لا يخفى)) [٢٩].

إما د. زاهد -ميدان بحثنا -فقد عرض لهذا الموضوع - علاقة الأصوات ودلالاتها- إذ قال: ((ونعني هنا الدلالات المكتسبة وما يضيفه استعمال الأصوات وإيداع تأليفها من ظلال ودلالات تناسب أصواتها الأحداث وتوحي بها إيحاء صفات الأصوات المؤلفة لتدل على معانٍ مناسبة كالتكرار الصوتي المقطعي لتدل على استمرار الحدث، فالتشديد فيها يوحي بالتشديد والمبالغة وانسجام أصوات الكلمات في سياقها يوحي بالسلاسة والرقة))[٣٠].

ويذكر د. زاهد ان أصوات اللغة التي كانت تصدر عن الإنسان في الأزمان السحيقة صدرت وهي تحمل إحساسه بأصوات الطبيعة وأحداثها فالمفخم والمجهور مثلاً تولد عن أحداث عنيفة كالرعد والصواعق والعواصف وغيرها من ظواهر الطبيعة، والمهموس والرخو والاغن عن شعوره بالبهجة والراحة، فاللغة التي يتسلمها جيل عن جيل قبله تتطور عبر العصور في أوضاعها المختلفة ولكن ظل شعوره أو لا شعوره يرتبط بأصول نشأتها وإيحاءاتها (٣١).

وقد أشار د. زاهد إلى اهتمام اللغويين المحدثين بالصلة بين اللفظ ودلالته؛ إذ ناقشها ابراهيم انيس وتمام حسان وغيرهم وخلاصة موقفهم: أن توليد المعنى عن طريق المحاكاة والتقليد بوساطة الصوت له أثر ذو أهمية وحيوية وقد وضعت نظم رمزية ترمي إلى بيان القيمة التعبيرية المتصلة بالأصوات المختلفة، ولكن ينبغي أن لا نبالغ في ذلك، إما ظواهر اللغة الطبيعية وكون الألفاظ صدى لأصواتها وأحداثها فهي ظاهرة واضحة في كل اللغات تشبه ما في العربية من ألفاظ الخرير والحفيف والصهيل والعواء وغير ذلك، وهذا النوع من الألفاظ يكثر في اللغات البدائية (٣٢).

ويعرض د. زاهد سؤالاً عن موقفنا من هذه الإيحاءات التي نجدها في نطق الألفاظ في سياقاتها من لغة النص القرآني وفيها تناسب بين الأصوات ومعانيها في كثير من المواضيع توحي بمعانٍ غير المعنى العربي المعجمي للكلمات (٣٣).

إذ يقول د. زاهد: ((نحن نعرف أن النص الإبداعي يهدف إلى الوصول بالكلمة إلى كامل قوتها وإيحائها سواء بالإيقاع وإيحاء جرس الكلمة أو التكرير والتشديد على أصوات معينة وغير ذلك من الوسائل الفنية، ينبغي لنا أن ننظر بناء الكلمة وتأليف أصواتها وسر تركيبها بهذه الصورة أو تلك والوظيفة التي تؤديها في التركيب لإحداث أثر يومي بما تختزنه الكلمة من تجارب استعمالها)) (٣٤).

فنلحظ أن للكلمة أثراً عندما يوحي نسيج أصواتها بظلال من المعنى تضاف إلى معناه المعجمي، ويستعمل النص القرآني الفاظاً ذات أصوات تحمل طاقة إيحائية توحي بمعانٍ تضاف إلى معناها العرفي [٣٥].

ومن الدلالات الصوتية التي ذكرها د. زاهد هي:

المبحث الأول

دلالة المبالغة

وعبر عنها د. زاهد بقوله: ((فقد يولد معنى المبالغة والتفخيم ما تحكيه الأصوات المفخمة فتثير ما يشبه الدوي توحيه الكلمات المؤلفة منها))[٣٦]، واستشهد بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} [٣٧].

يعقب د. زاهد على هذه الآية بقوله: ((تدرج سياق الآية في وصف الكافرين منهم في نار جهنم في اضطراب وحيرة لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم العذاب فهم معلقون وبعذاب دائم ، ثم قال: (وهم يصطرخون) وهناك فرق بين {يصطرخون} و{يصرخون}، فيصطرخون اجتمع فيها ثلاثة أصوات مفخمة الصاد والطاء المنقلبة عن تاء افتعل والخاء، فأصبح الفعل يحاكي أصداء صراخهم، ولصراخهم دوي وصخب عال مستغيث أوحى به التفخيم في أصوات الفعل))[٣٨].

في هذه الآية لفظة تلقي بظلالها على المشهد المفزع كله، وتبدع في عرضه وتصويره، وتختزن كل ضجيجه وانفعالاته ، أنها بلا شك {يصطرخون} .

ومعنى {يصطرخون} يتصارخون، من الصراخ، وهو الصياح بجهد وشدة [٣٩]. وقال الطبرسي (٥٤٨ هـ): ((والاصطراخ: الصياح والنداء بالاستغاثة: افتعال من الصراخ، قلبت التاء طاءً لأجل الصاد الساكنة قبلها، وإنما فعل

ذلك لتعديل الحروف بحرف وسط بين حرفين يوافق الصاد في الاستعلاء والاطباق، ويوافق التاء في المخرج))[٤٠].

إن هذه الحالة النفسية التي يسودها الصياح والنداء والاستغاثة، لابد لها من لفظة تترجمها بدقة، لتنقلها بضجيجها وانفعالاتها، وقد أختار لها القرآن لفظة {يصطرخون}؛ إذ إن صيغتها وجرسها وشدة نطقها وثقله وتقارب مخارج حروفها، ترشد العقل إلى دلالتها، وتصور ما فيها من قوة في الانفعال والتحسر [٤١]،يقول سيد قطب: ((تسمع كلمة {يصطرخون}في الآية ... فيخيل إليك جرسها الغليظ ، غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما تلقي إليك ظل الاهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه، وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون، ثم يقول: وحين يستقل لفظ واحد بهذه الصورة كلها يكون ذلك فناً من التناسق الرفيع)) [٤٢].

فقد ظهر التكلف الدلالي وقوة الفعل بما أوحى به حرف الاستعلاء والاطباق من القوة، وذكر ابن جني أن حرف الصاد أقوى صوتاً، وذلك لما فيه من الاستعلاء ، فقد جعله الصاد لقوتها للمعنى الأقوى [٤٣]؛ لهذا ناسب وجودها استعمالاً في هذا الموضع القرآني لأداء الدلالة القوية للعذاب.

وقد فرق د. زاهد بين لفظتي { يصرخ ويصطرخ} ورد ذلك إلى اجتماع الأصوات {ص ، ط ، خ} المفخمة وأعطى فعل {يصطرخ} دلالة القوة؛ إذ إن قوة الحروف المفخمة معاً أوحت بقوة اصطراخهم { صراخهم القوي} واستدل على ذلك بسياق الآية الذي يخبر بأنهم معلقون في العذاب لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم العذاب [٤٤].

ثم انظر إلى ما يوحيه تعزيز التفخيم من الإحساس بالمبالغة في الحدث في {يصطرخون} فكأن ارتفاع أصواتهم بالصراخ، ومشاركتهم جميعاً فيه، وتكرار ذلك منهم لا يكفي أن يعبر عنه بالفعل المجرد، فيقال مثلاً: {وهم يصطرخون فيها} فجاءت تاء الافتعال لتدل على المبالغة في إيقاع الحدث، وقد

قصد لها أن تجاور الصاد المطبقة فتتحول بالمجاورة إلى التفخيم، ليكون في تفخيمها فضل مبالغة في إيقاع الفعل (٤٥).

ثم أن الصاد والطاء بما فيهما من تفخيم وإطباق يعبران تمام التعبير عن حال أهل النار، الذين يحاولون الخروج منها، وهذا هو عين ما يصطرخون به: {ربنا أخرجنا}، فإذا بهم يجدونها مطبقة عليهم ، تصطدم محاولاتهم وأصواتهم بجدرانها، فترتد إليهم ثانية، كما تتلاقى دلالات التفخيم في كل من الصاد والطاء والخاء لتعبر عن ضخامة الصراخ لأهل النار، كما تعبر الراء بمالها من صفة التكرارية عن تكرار ذلك الصراخ واستمراريته، ويشارك في هذا حرف الواو بما له من صفة المد والهدي إلى غاية سحيقة، ليدل على طول هذا الصراخ، ثم تأتي النون في نهاية الكلمة معبرة بانتهاء الحزينة عن مدى الحسرة والخيبة التي يؤوب بها الكافر من هذا الصراخ الطويل الدائم الأليم (٤٦).

ومن جنس أداء دلالة المبالغة بالصوت قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ} (٤٧). يقول د. زاهد في هذه الآية : ((فتفخيم صوت الخاء ورخاوته بعد السين المهموسة المرققة أوحى بصورة انتزاع النهار وفصله كما يفصل الجلد عند سلخه ثم مفاجأة نزول الظلام في الآية يظهر التناقض بين حالتين، فعنصر المفاجأة باستعمال {إذا} هنا زاد من حركة التناقض وضوحاً)) (٤٨).

يقول ابن منظور في معنى {انسلخ}: ((وانسلخ النهار من الليل: خرج منه خروجاً لا يبقى معه شيء من ضوئه لأن النهار مكدر على الليل، فإذا أزال ضوءه بقي الليل غاسقاً قد غشي الناس، وقد سلخ الله النهار من الليل يسلخه)) (٤٩).

ومعنى السلخ : استعير لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله (٥٠)، وفي التبيان: ((أي تخرج منه النهار فالسلخ إخراج الشيء من لباسه،

ومنه إخراج الحيوان من جلده يقال سلخ يسلخ سلخاً فهو سالخ. أي فخرج منها خروج الشيء مما لابسه)) (٥١).

وقال ابن أبي الاصبع: ((إن مقاطع آيها النون المرادفة وسمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل علم أن الفاصلة {مظلمون} لأن من اسلخ النهار عن ليله اظلم: أي دخل في الظلمة)) (٥٢).

ففي هذه الآية كان الفعل يدل على الحاضر والفاعل هو القوة العظمى التي تفصل ما تشاء من التبديل والتغيير (٥٣)، ويبدو أن د. زاهد يرى في استعمال الخاء بعد السين في فعل السلخ هو صورة صوتية موحية بأن السلخ يبدأ بهدوء ولكن عند لحظة نزع الشيء أخيرا فإن الصوت المسموع يكون قوياً؛ من هنا تقدم صوت السين المهموس للتعبير عن بداية السلخ صوتاً ثم انتهى السلخ بالخاء للمبالغة بقوة الحدث والصوت معاً عند نهاية عملية السلخ، وهذا يعبر عن قدرة الله تعالى والمبالغة في الدلالة على سطوته واستطاعته على فعل غير الممكن على المخلوق ففي استعمال هذه الأصوات دلالة على خالقية الله ووجوب توحيده والانصراف إلى طاعته لأنه المالك والقادر الأوحد على وجه الإطلاق دون شراكة البتة.

المبحث الثاني

دلالة التشديد الصوتي

يقول د. زاهد في هذه الدلالة: ((والتشديد زيادة في الحروف يعني زيادة في المعنى كما يقول الصرفيون وكثيراً ما يوحي الثقل وطول العناء في سياق استعماله)) (٥٤)، واستشهد بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ} (٥٥)، حيث يذكر د. زاهد أن هذه الآية ((تشير هنا من هذا النداء بالنفور في سبيل الله والنفور سرعة الحركة ثم السؤال العاتب حد اللوم والفعل {اثاقلتم} توحي بالتصاقهم بالأرض مقابل الفعل {انفروا} مما فيه من تشديد التاء بقلب تاء الافتعال وإدغامها بتاء الفعل واصله

{تثاقلتم} وذلك ما عبر عنه ابن جني ((مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث)) [٥٦] فالثاء توحي النعت للتراث في {بحث} على حد قوله[٥٧]، فكيف إذا جاءت مضعفة هنا؟ فهي تحكي عدم حركتهم والتصاقهم بالأرض))[٥٨].

عند التأمل في هذه الآية نجد أن الخطاب للذين حصل منهم التثاقل، وكان رسول الله(صلى الله عليه وآلهوسلم) استنفر المسلمين إلى تلك الغزوة بعد رجوعهم من الطائف في وقت عسرة وقحط وغيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم (٥٩). فالاستبطاء إذن مخصوص بنفر من المؤمنين، لأن جميعهم لم يتثاقلوا عن الجهاد فهو عموم أريد به الخصوص [٦٠].

فالخطاب موجه للمؤمنين من أجل التحريض على الجهاد في سبيل الله بطريقة العتاب على التباطئ، بإجابة دعوة النفير إلى الجهاد، ولا اختلاف بين العلماء في أن الآية نزلت عتاباً على من تخلف عن غزوة تبوك ، إذ تخلف عنها قبائل ورجال من المؤمنين، والمنافقين [٦١].

وتنطوي الآية على مفارقة عجيبة تبدع في رسم مشهد مؤثر، فوسط النداءات الطويلة المتلاحقة التي تحث المؤمنين على التغير، ترسم صورة شاخصة يبدو فيها هؤلاء وقد ركنوا إلى الأرض واخلدوا إليها، وقعدوا عن كل همة، ولم تفلح محاولات الاستنهاض التي بذلت لأجلهم.

هذه الصورة يرسمها الجرس الصوتي لـ {اثاقلتم} وإيقاعها ، إذ ((يتصور الخيال ذلك الجسم المتثاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل)) [٦٢].

و {اثاقلتم} أصله {تثاقلتم} ، قلبت التاء ثاء لتقارب مخرجيهما طالباً للإدغام، واجتلبت همزة الوصل لإمكان تسكين الحرف الأول من الكلمة عند إدغامه [٦٣]. واثاقلتم: أي تباطأتم وتقاعستم [٦٤]. والتثاقل: تكلف الثقل، أي إظهار أنه ثقيل لا يستطيع النهوض. والثقل حالة في الجسم تقتضي شدة تطلبه للنزول إلى أسفل، وعسر انتقاله، وهو مستعمل هنا في البطئ مجازاً

مرسلاً. وفيه تعريض بإن بطأهم ليس عن عجز، ولكنه عن تعلق بالإقامة في بلادهم وأموالهم [٦٥]، وعدي التثاقل بـ {إلى} لأنه تضمن معنى الميل والإخلاد، كأنه تثاقل يطلب فاعله الوصول إلى الأرض للقعود والسكون بها [٦٦].

إن جرس هذه الكلمة وإيقاعها ، وما تحدثه من ثقل في النطق، تؤدي الدلالة المنبعثة فيها، فهي تنطق بحال نفوسهم المتقاعسة، وحبهم في الإقامة بأرضهم وديارهم، أنها تعبر عن نفس مثقلة بحب الحياة، رضيت بالدنيا بديلاً عن الآخرة وتصور ظلال هذا المشهد الحي، وقد ألصقت بالأرض، وتثاقلت عليها بمقدار ما تحمله الأرض من إثقال [٦٧].

يقول سيد قطب: ((إن في هذه الكلمة {طناً} على الأقل من الإثقال! ولو إنك قلت: تثاقلتم لخف الجرس، ولضاع الأثر المنشود،لتوارة الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ ،واستقل برسمها))[٦٨].

وفي هذا يقول تمام حسان: ((فإذا علمنا أن للتشديد عنصرين أولهما تاء ساكنة والثاني تاء متحركة {لأن الحرف المشدد بحرفين} أحسسنا السكون الذي في العنصر الأول إيحاء بالإخلاد إلى الأرض، وعدم الرغبة في الخروج للجهاد، مما يدل على أن الصوت يحكي الفعل أو على الأصح عدم الفعل)) [٦٩].

ولتوضيح الدلالة الصوتية لهذا اللفظ، وإبراز أثره في الدلالة السياقية يمكن إن يقال بأن حرف الثاء قد جاء مكرراً، وهو حرف يخرج من بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، فهو قريب المخرج، وتكرره بالتشديد يصور هيأة المتثاقل المتباطئ، فهو لا يبرح مكانه، بل يتردد فيه. كما أن النطق لا يزال يتردد في مخرج الثاء يكرره ولا يبرحه، ثم يأتي المد ليصور لك أن هذا التثاقل لا يتحرك ولا يمتد إلّا في مكانه، فهو مدّ خاص بهذا الحرف القريب المخرج {الثاء} الذي لا يكاد النطق يبرحه تارة بتشديده وتكريره، وتارة بمده، ثم ها هو المد يبلغ أقصاه، حيث مخرج القاف أقصى اللسان، وهنا يظن الظان أن

المتثاقل قد تحرك شيئاً أو جاوز مكانه، فإذا به يرتد تارة أخرى إلى مكانه الذي قام منه، وهو منطقة طرف اللسان حيث { التاء واللام والثاء } ، بل أنه يتساقط ويتأخر عن مكان ابتدائه، حيث يرتد إلى مخرج الميم عند الشفتين، ولاشك في أن المرء حينما ينطق بهذه الكلمة لا يكاد يصل إلى نطق الميم الساكنة، وخاصة مع إيحاء هذا المقطع الأخير { ثم} حتى يستشعر أن شيئاً قد سقط على الأرض فجأة محدثاً هذا الصوت (٧٠).

ونلمس معنى التشديد الصوتي أيضا في قوله تعالى: {فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ* الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ* يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا} (٧١) حيث نجد د.زاهد معقباً على هذه الآية بقوله: ((فالفعل {يدعون} يختلف في معناه عن {يدفعون} ثم توكيده بالمصدر {دعا})) (٧٢).

إن هذه الآية تبدو فيها اللفظة القرآنية مصورة ومعبرة وموحية، وقادرة على بعث الحياة في الصورة، وإعطائها نبضاً جديداً وحركة مناسبة. والصورة - كما نتخيلها - تنقل إلينا مشهداً من مشاهد عذاب الكافرين يوم القيامة، ويبدو فيه خزنة جهنم وهم يدفعون هؤلاء الكافرين إلى النار.

نستمع إلى جرس الأصوات في لفظتي {يدعون} و {دعا} في الآية فنجدهما يصوران المشهد تصويراً دقيقاً، والمشهد كما تراه تظهر فيه نار جهنم تستعر وتزفر غيظاً وحنقاً على هؤلاء الكفار، وفي الجهة المقابلة تبدو صورة خزنة جهنم وهم يدفعون ارتالاً من الكفار في ظهورهم دفعاً عنيفاً في جفوة وغلظة، فيصور هؤلاء اصواتاً من أعماقهم تحكي مشاعر التوجع والتألم ينقلها صوت العين ، وهو صوت حلقي رخو مجهور، ذو قيمة تعبيرية واضحة في تصوير الحركات والأصوات العنيفة.

يقول سيد قطب في ذلك: ((ومما يلاحظ هنا أن { الدّع } هو الدفع في الظهور بعنف، وهذا الدفع في كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتاً غير إرادي فيه عين ساكنة، هكذا { أع } وهو في جرسه أقرب ما يكون إلى جرس الدع))(٧٣). وذلك أن خزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون

نواصيهم إلى إقدامهم، ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم، وزجاً في اقفيتهم (٧٤).

إن لفظة { يدعون} بجرسها وإيقاعها، وما في صيغتها من تشديد وحركة نفسية، وضغط وثقل على النفس والنطق، توحي بهول ذلك اليوم، وبالذلة والخزي والكره المنصب على أهل جهنم، وإن هؤلاء الزبانية الذين يدفعونهم من ظهورهم دفعاً، يضعون أمعاءهم على وشك الاقتلاع والاستئصال، وهم يشعرون بها وكأنها تصعد إلى فوق. وهنا يأتي دور التصوير ليجسم ظلال الصورة الحسية ويشخص معالمها، حية متحركة، حالة مؤلمة، دفع بشدة وقوة عنيفة من وراء الظهور، وظلال من الذلة والمهانة والمسكنة (٧٥).

ولعل المفعول المطلق {دعا} يزيد في تأكيد ما للفظة من قوة في التصوير والنطق والإيحاء (٧٦). ويشير ابن عاشور إلى أن تأكيد {يدعون} بـ {دعا} للتوصل إلى إفادة تعظيمه بتنكيره (٧٧)، بمعنى سيدعون أي دع.

ثم أن بناء الصيغة للمجهول في {يدعون} يشير إلى قوة خفية - لم يذكر اسمها في الآية، وهم زبانية جهم الغلاظ الشداد - وذلك ليكون وقعها شديداً (٧٨)، فاستعمال صوت الدال والعين المشددة فيه سمة الكثرة للدفع لهم وينطوي على ملمح الشدة الحاصلة في هذا الوضع وبمحصلة الأمرين نقف على أن مشاهد القيامة غالباً ما يستعمل فيها التشديد الصوتي لإظهار صورة القوة وبيان داعي الشدة في التعامل في ذلك اليوم العظيم، وما استعمال هذا التشديد في الصوت الذي رصده د. زاهد ومن قبله المفسرون والباحثون إلاّ دعوة واضحة لأخذ العبرة وتفهم العظة، لأن الشدة المتوعد بها لهذا التشديد داعية بالحتمية - لكل عاقل - إلى الانتهاء عن الغي وسلوك التوحيد سبيلاً للخلاص ونيل الرحمة لأنها سبيل الحق الأمثل.

المبحث الثالث

تكرار المقطع الصوتي

إن من تكرار المقطع الصوتي الموحي بتكرار المعنى قوله سبحانه : { وَبُرِّزَتِ

الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ. فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ} (٧٩) .

يقول د. زاهد في هذه الآية : ((نلاحظ تسلسل الآيات من تبريز الجحيم ثم لومهم لعبادتهم العاجزين عن نصرهم ونصرة أنفسهم ثم جاء { فكبكبوا} في مناسبته للمعنى بتكرار مقطعها المؤلف من الكاف والباء فتصورهم وكأنهم يدفعون فيتساقطون على وجوههم، فأصل الفعل{ كببوا} من قولك: لبيت الإناء، فأبدل من الباء الوسطى كافاً، لاستثقال اجتماع ثلاث باءات (٨٠) ؛ وهنا نتذكر قول الخليل في الفرق بين صر وصَرصَرَ، فتكرار المقطع يوحي بتكرار الحدث واستمراره)) (٨١)، فنلحظ أن مقولة الدكتور هنا مؤسسة على مقولة الخليل في أن تكرار المقاطع الصوتية عينها يؤول بالتحصيل إلى تكرار حدوث الحدث مراراً.

يقول الزمخشري (٥٣٨هـ) : ((والكبكبة تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب كبة مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها)) (٨٢)، وهذا التكرار يشير إلى هول السقوط وطريقة حدوثه فياله من أمر جليل خطير حقاً.

وعبر عنها ابن دريد في جمهرته بقوله: ((كُبَّ الشيء يكبه كباً - قلبه - ويقال طعنه فكبه لوجهه والكُبّ - الشيء المجتمع من تراب وغيره، واكب الرجل على الشيء - إذا أعكف عليه فهو مكب أكبابا. ويقال - أكببت على الشيء – إذا تجانأت عليه)) (٨٣).

وذكرها الراغب في مفرداته أن : ((الكب : إسقاط الشيء على وجهه. والكبكبة: تدهور الشيء في هوة، قال تعالى: { فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ}. والاكباب: جعل وجهه مكبوباً على العمل)) (٨٤).

فـ((إنك لتسمع من جرس اللفظ صوت دفعهم وسقوطهم بلا عناية وبلا نظام، وصوت الدبدبة الناشئ عن الكبكبة كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف، فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه. وإنهم لغاوون وقد كبكب معهم جميع الغاوين،

هم وجنود إبليس أجمعون والجميع جنود إبليس فهو نعيم شامل بعد تخصيص)) (٨٥).

ومن ذلك ايضا قوله تعالى: {فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا {١٣} فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا} (٨٦). يقول د. زاهد: ((نلاحظ الفعل {دمدم} وإيحاء تكرار المقطع فيه يحدث دوياً في الذهن بعد أن حذرهم الرسول {ناقة الله} فكذبوه فجاءهم العقاب شديداً فهو لا يوحي به تكرار المقطع المؤلف من صوت الدال الشديد المجهور ثم الميم الذي تنطبق الشفتان عند نطقه فيخرج الصوت من الأنف فيظهر دوي كدوي الضرب على الطبل الضخم)) (٨٧).

فـ{دمدم} تعني ((أهلكهم، ودمدمت الشيء إذا ألزمته بالأرض، ودمهم يدمهم دماً، طحنهم فأهلكهم. والدمدمة: الاستئصال. فدمدم عليهم: وذلك لما غشاهم به من العذاب والإهلاك)) (٨٨).

يقول الطوسي (٤٦٠هـ): ((معناها أهلكهم الله تعالى عقوبة على ذنوبهم من تكذيب صالح وعقر الناقة. وقيل: معنى دمدم عليهم دمر عليهم. وقيل معناه أطبق عليهم بالعذاب يقال دمدمت على الشيء إذا ضيقت عليه، وناقة مدمدمة قد البسها الشحم. فإذا كررت الإطباق قلت دمدمت، وقيل { دمدم عليهم} أي غضب عليهم فالدمدمة ترديد الحال المتكرهة، وهي مضاعفة ما فيه المشقة، فضاعف الله تعالى على ثمود العذاب بما ارتكبوا من الطغيان)) (٨٩). بفعل تكرار المقطع في صياغة فعل دمدم.

وعبر عنها القرطبي (٦٧١هـ) بقوله: ((وحقيقة الدمدمة: تضعيف العذاب وترديده. ويقال : دممت على الشيء: أي أطبقت عليه، ودمدم عليه القبر، أطبقه. فإذا أكررت الإطباق قلت: دمدمت ، والمدمدمة: إهلاك باستئصال)) (٩٠).

فالتكرار في الآيات المذكورة يوحي بتكرار العذاب وشدته والأصوات المستعملة في هذه الآيات هي التي حكت هذا المعنى، فصوت الباء والكاف

المتكرران في لفظة {كبكبوا} دلا على شدة العذاب الذي وقع عليهم إذ هم يتدافعون فيما بينهم ويتساقطون على وجوههم ، فتكرار اللفظ يدل على تكرار المعنى فهم ملقون في جهنم على وجوههم مرة بعد أخرى حتى يستقروا بها . في حين دلت لفظة {دمدم} المتكونة من صوت الدال المجهور الذي فيه شدة وصوت الميم الذي تنطبق الشفتان عن نطقه فيخرج الصوت من الأنف فيظهر دوي كدوي الضرب على الطبل الضخم فتكرار المقطع فيها. يحدث دوياً في الذهن فهم من شدة العذاب الذي هم فيه كأن الأرض أطبقت عليهم لما في هذا العقاب والعذاب من شدة [٩١]. ولولا استعمال هذه الأصوات على هيأة التكرار الصوتي لما تولد هذا المعنى في الذهن فالرتة المضخمة الحادثة في الأنف عند النطق بالمفزعة تكفي لأدراك انطباق العذاب وشدته على الكافرين فالصوت يرن في الاذن والرأس معاً كما عبر عنها د. زاهد حقاً.

الخـــاتـــمة

من التأمل وإعادة النظر في مقولات الدكتور زاهد في نطاق التنظير للصوت العربي وأثره في فهم النص القرآني؛ استطاعت الباحثة أن تصل إلى جملة ثمرات يمكن أن تعرضها على هيأة نتائج اختصاراً على النحو الآتي:

١- وجدت الباحثة بان د. زاهد يؤمن تمام الايمان بان نشأة اللغة العربية انما هي كامنة في مبدأ محاكاة أصوات الطبيعة؛ إذ يقول: (ان أصوات اللغة التي كانت تصدر عن الإنسان في الأزمان السحيقة صدرت وهي تحمل إحساسه بأصوات الطبيعة وأحداثها فالمفخم والمجهور مثلاً تولد عن أحداث عنيفة كالرعد والصواعق ... والمهموس والرخو والاغن عن شعوره بالبهجة والراحة)، غير ان الباحثة لاتتفق معه تماما في هذا الاتجاه الايماني لنشأة اللغة؛ ذلك بانه وإن كانت جملة من الاصوات اللغوية تحاكي فعلا بجرسها اصوات الطبيعة؛ بيد ان هذا لا يعني أننا يمكن ان نجزم كلياً بنشوء اللغة بهذه الحيثية؛ في الوقت الذي لاتنكر فيه الباحثة ان من الالفاظ ما يمكن ربطه بالمحاكاة الصوتية للطبيعة؛ ذلك باننا لو تقبلنا الامر على سبيل

النقاش؛ فانه من المفترض ان يفسر لنا الدكتور زاهد داعي اختلاف اصوات اللغات في التعبير عن المعاني؛ فاذا كانت اللغات قد ظهرت محاكاةً للطبيعة وكانت اصوات الطبيعة واحدة في كل مكان كان من المفترض ان تكون اللغات موحَّدة الاصوات والمعاني في وقت معاً؛ باعتبار الاصل الموحَّد (الطبيعة) على حين ان الحال الواقعي للغات يباين هذا المنحى الايمان للدكتور زاهد.

٢-تتفق الباحثة تماما مع د. زاهد على ان بعض الالفاظ في العربية لها دلالات تتناسب وطبيعة مخرج الصوت او صفته؛ وهذا يدل على ان للاصوات اهمية بالغة في تحديد المعنى؛ بل ان لها اهمية كبيرة جدا في بيان المعنى التشخيصي التخيُّلي بدقة في سياقات التعبير القرآني وذلك حينما ينتقي صوتا موافقا للمطب الدلالي من الاية، فاذا كان السياق سياق عذاب وعقوبة وغضب عبر سبحانه بالأصوات الانفجارية كإضافة صوت (الطاء) بدلا من التاء على الفعل يصطرخون، للدلالة على الدوي والصراخ والضرب الذي يُسمَعُ عند عذاب الكافرين، ولو جرى الخطاب على الفعل الاصلي وذكره بالتاء فقال (يصترخون) من (يفتعلون) لهفتت الدلالة ولان الكلامُ؛ لان صوت الطاء اقوى من صوت التاء فاستعمل القوة للمعنى القوي وتجافى عن الرقة في بيان سمة الصوت لان السياق لايناسب ذلك، فاستعمال الطاء في الفعل(يصطرخون) جعل للفعل دلالة اضافية تكمن في صيغته وجرسه وشدة نطقه وثقله وتقارب مخارج حروفه، فالطاء ترشد العقل إلى دلالة الفعل الخاصة، وتصور ما فيها من قوة في الانفعال والتحسر، اما اذا كانت السياق سياق رحمة وسكينة عبر سبحانه عنه بالأصوات المهموسة للدلالة عن اللين والسهولة في انتاج الدلالة التي تتناسب والرحمة التي يفيض منها النص الكريم.

٣-اتضح لدى الباحثة بناءً على مقولات الدكتور زاهد ان الانتقاء الترتيبي لاصوات الفعل انما تتوافق وتنسجم مع الطريقة الاجرائية لوقوع الفعل

نفسه حدثاً على ارض الواقع، ومن ذلك قوله تعالى (نسلخ) اذ استعمل الخاء بعد السين في فعل السلخ وهو صورة صوتية موحية بأن السلخ يبدأ بهدوء ولكن عند لحظة نزع الشيء أخيرا فإن الصوت المسموع يكون قوياً؛ من هنا تقدم صوت السين المهموس للتعبير عن بداية السلخ صوتاً ثم انتهى السلخ بالخاء للمبالغة بقوة الحدث والصوت معاً عند نهاية عملية السلخ، وكذا الحال لتكرار المقطعي الصوتي للفعل (كبكبوا) اذ يرى د. زاهد ان {كبكبوا} مناسبة للمعنى بتكرار مقطعها المؤلف من الكاف والباء فتصورهم وكأنهم يدفعون فيتساقطون على وجوههم، فأصل الفعل { كببوا} فأبدل من الباء الوسطى كافاً، لاستثقال اجتماع ثلاث باءات؛ مما ادى الى تكرر المقطع، الذي يوحي تباعا بتكرار الحدث واستمراره، من هنا ندرك ان ترتيب الاصوات قد أدى تصويراً اجرائياً للفعل ظهورا على ارض الواقع، وقد انجز الفعل هذا الامر لا بحدثه بل بمقطعه الصوتي، وهذا يعد من باب الاعجاز الصوتي في النص القرآني بازاء الاعجاز الصرفي والنحوي والفني عموماً.

٤-وجدت الباحثة ان الدكتور زاهد قد ربط بين انتقاء الصوت المعبر عن المعنى والحال النفسية لمتحدث عنهم؛ فالصوت نفسه يقوم بعملية رسم التصور الذهني لدى المتلقي عن الوضع النفسي الذي كان يعيشه من تحدَّثَ عنهم النصُّ الكريمُ، وكان ذلك تحديدا في حديث الدكتور عن دلالة تشديد الصوت في كلامه على الفعل (اثّاقلتم)؛ اذ وردت الثاء مشددة في بداية الفعل مما دل على ان جرس هذه الكلمة وإيقاعها ، وما تحدثه من ثقل في النطق، تؤدبي الى النطق -ترجمةً- بحال نفوسهم المتقاعسة، وحبهم في الإقامة بأرضهم وديارهم، فهي تعبر عن نفس مثقلة بحب الحياة، رضيت بالدنيا وقد ألصقت بالأرض، وتثاقلت عليها بمقدار ما تحمله الأرض من إثقال، ولولا مضاعفة صوت الثاء لما فهم حالتهم النفسية ولما ادرك المتلقي هذه التفصيلات المضمونية بهذه الدرجة من السعة

والوضوح.

٥- وجدت الباحثة ان الدكتور زاهد لم يُنَظِّرْ للصوت من اجل بيان تعبيره عن الدلالة في التعبير القرآني فحسب؛ بل وقفت على د. زاهد وقد فصَّلَ حيثيات هذا التعبير الدلالي للصوت في النص القرآني الى الحد الذي ربطه ليس بالدلالة اوبسياق النص الكريم او بالحالة النفسية للمُتحدَّث عنهم؛ بل وشجه بالصوت الذي يخرج من المُتحدّث عنهم انفسهم في حال وقوع الفعل عليهم الذي يحمل الصوت المعبر عن صوتهم الذي يخرج منهم تحديدا، ويبدو ذلك جليا في حديث د. زاهد عن الفعل (يدَعُّون) في قوله تعالى {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا} وقد استدل على هذا بمقولة سيد قطب الذي يرى بان { الدّع } هو الدفع في الظهور بعنف، وهذا الدفع في كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتاً غير إرادي فيه عين ساكنة، هكذا { أع } وهو في جرسه أقرب ما يكون إلى جرس الدع، ولهذا يرى د. زاهد ان ورود هذا الصوت هنا هو للتعبير عن الصوت الخارج من افواههم في تلك اللحظة، فكأن النص صوَّرً حال دفعهم وهو الدفع بقوة وعنف وقسوة وصوَّر ايضا حيثية الصوت الخارج منهم في لحظة الدفع ليستبين المتلقي مدى قوة ذلك الدفع الى جهنم، ويحسب الباحث ان التعبير بهذا الصوت مناسب جدا لمقام المُتحدَّث عنهم ووجوب التعامل معهم بهذه الطريقة دون غيرها استحقاقاً لهم .

واخيراً اتضح لدى الباحثة أن الله سبحانه غالباً ما يتبع التكرار الصوتي أو التشديد الصوتي في سياق الآيات المتحدثة عن أهوال يوم القيامة وذلك لمناسبة هذه الأصوات وحيثية استعمالها للقصد الدلالي المبتغى إيصاله للمتلقي، ذلك بأن الصوت وقعاً في نحت الصورة المرعبة في ذهنية السامع أشد من وقع دلالة الكلمة مجمعياً، من هنا يمكن القول أن د. زاهد قد عرض هذه الصور الصوتية في النص القرآني لإثبات إعجاز هذا النص السماوي صوتياً فضلاً عن إعجازه في نطاقات السياق اللغوي لآياته بوجوهها كافة.

ملخص البحث

لقد كان العلماء القدماء على وعي تام ودراية عالية بعلم الأصوات؛ ذلك بأننا نجد في مصنفاتهم التخصصية إشارات وتلميحات متناثرة يمكن أن تدرك هنا أو تمسك هناك، تدل دلالة جلية على إدراكهم لقيمة الأصوات اللغوية ودلالاتها في الخطاب العربي.

وتأسيسا لما للصوت من أثر كبيرة وأهمية بالغة في بناء الفن الاعجازي في النص القرآني اذ يعد احد أجمل تجليات السمة اعجازية فيه سواء أكان من حيث اكتناز الصوت بالدلالة أو تأديته للفن التأثيري أو اسهامه للجمال الصياغي في ذلك التعبير السماوي المبدع؛ وبناء عليه سينطلق هذا البحثي من فرضية علمية تنص على دراسة حيثيات السمات الصوتية وكيفية توجيهها عند الدكتور زهير غازي زاهد تحديدا، ذلك بان للدكتور زاهد اسهامات علمية جليلة القدر في هذا المجال يمكن ان نسلط عليها الضوء من اجل استظهار مكمن الاعجاز الدلالي والجمالي والفني في الصوت القرآني.

Abstract

Scientists have been ancient fully aware and familiar with high knowledge of the votes; so that we find in the specialized works scattered signals and hints can be aware of here or stuck there, show a clear indication of their awareness of the value of language sounds and their significance in the Arab discourse. Based to the sound of the impact of a large and very important in the construction of art miraculous in the Quranic text as is one of the most beautiful manifestation attribute miraculous it, whether in terms of hoarding sound بالدلالة or play for art Altathre or contribution to the beauty of drafting the expression heavenly creator; Accordingly will start this research from scientific hypothesis states to study the merits of audio features and how to be directed at Dr. Zuhair Ghazi Zahid specifically, so that Dr. Zahid great scientific contributions much in this area can shed light in order to memorize the reservoir miracle semantic and aesthetic and artistic in Quranic sound.

هوامش البحث

(١) الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ١١٠/٢، والسيوطي: الاتقان في علوم القرآن: ٣١٣/٢.

(٢) ينظر: سيروان عبد الزهرة الجنابي: مناهج تفسير النص القرآني – دراسة في النظرية والتطبيق: ٤٣- ٤٤.

(٣) ينظر عبد الكريم مجاهد، الدلالة اللغوية عند العرب: ٩.

(٤) ينظر هادي نهر، الحروف والأصوات العربية في مباحث القدماء والمحدثين: ٢٥٠. وينظر مصطفى مندور، اللغة بين العقل والمغامرة: ٥٤.

(٥) ابن جني، الخصائص: ١٥٤/٢.

(٦) ينظر م. ن : ١٨/١.

(٧) ينظر محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب: ٤٤٨.

(٨) ينظر: كاصد الزيدي، فقه اللغة العربية: ٤١٢.

(٩) سيبويه، الكتاب: ٧٥/٤.

(١٠) ينظر سيبويه، الكتاب: ١٢/٤.

(١١) سيبويه،الكتاب: ١٤/٤.

(١٢) ابن جني، الخصائص: ٢٣٧/١.

(١٣) م. ن: ٥٠٥/١.

(١٤) ابن جني، المحتسب: ٦/٢.

(١٥) ينظر ابن الاثير، المثل السائر: ٢٤١/١-٢٤٧.

(١٦) ابن الاثير، المثل السائر: ٢٤١/٢.

(١٧) ينظر غازي طليمات، احمد بن فارس اللغوي ، دراسة في آرائه اللغوية والنحوية: ١٠٩.

(١٨) احمد بن فارس، مقاييس اللغة: ٩/١.

(١٩) ينظر غازي طليمات، احمد بن فارس اللغوي - دراسة في آرائه اللغوية والنحوية: ١٠٩.

(٢٠) ينظر السيوطي، المزهر: ٤٧/١-٥٥.

(٢١) م.ن: ٤٧/١.

(٢٢) م.ن: ٥٣/١.

(٢٣) احمد فارس الشدياق، الساق على الساق: ١٢.

(٢٤) صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة: ١٤١.

(٢٥) م. ن: ١٤٢.
(٢٦) محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية: ٢٦١.
(٢٧) م. ن: ١٧٦.
(٢٨) ينظر عبد الكريم مجاهد ، الدلالة اللغوية عند العرب: ٢٣٧.
(٢٩) جرجي زيدان ، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية: ١٠٠.
(٣٠) زهير زاهد، في النص القرآني واساليب تعبيره: ٩٠.
(٣١) ينظر زهير زاهد،في النص القرآني: ٩٠-٩١.
(٣٢) ينظر م. ن: ٩٢، وابراهيم انيس، دلالة الألفاظ : ٦٨-٦٩. وتمام حسان ، البيان في روائع القرآن: ١/ ١٧٥. وستيفن اولمان، دور الكلمة في اللغة: ٨٤-٩٩. وينظر هوامش الدكتور كمال بشر على ترجمة المتن للصفحات المذكورة.
(٣٣) ينظر زهير زاهد، في النص القرآني: ٩٣.
(٣٤) زهير زاهد، في النص القرآني: ٩٣.
(٣٥) ينظر زهير زاهد،في النص القرآني: ٩٣.
(٣٦) م. ن: ٩٣.
(٣٧) سورة فاطر:الآيتان □□-٣٧.
(٣٨) زهير زاهد، في النص القرآني: ٩٤.
(٣٩) ينظر الزمخشري، الكشاف: ٦٢٤/٣
(٤٠) الطبرسي ،مجمع البيان :٦٤١/٨.وينظر: الطوسي، التبيان: ٤٣٤/٨.
(٤١) ينظر عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن: ٩٣.
(٤٢) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن: ٧٩.
(٤٣) ينظر ابن جني، الخصائص: ١٦٢/٢.
(٤٤) ينظر زهير زاهد، في النص القرآني: ٧٥.
(٤٥) ينظر تمام حسان، البيان في روائع القرآن: ٢٨٨/١.
(٤٦) ينظر ابن جنبي، الخصائص: ٤٦/١.
(٤٧) سورة يس:الآية ٣٧.
(٤٨) زهير زاهد، في النص القرآني واساليب تعبيره:٩٥.
(٤٩) ابن منظور، لسان العرب (مادة سلخ) : ٣/ ٢٤. وينظر ابن دريد، جمهرة اللغة (مادة سلخ): ٢/ ٢٢٠. وابن فارس ، مقاييس اللغة (مادة سلخ) : ٣/ ٩٤.
(٥٠) ينظر الزمخشري، الكشاف:١٨/٤.

(٥١) ينظر الطوسي، التبيان: ٨/ ٤٥٨-٤٥٩. والطبرسي، مجمع البيان: ٦٦٣/٨. والشوكاني، فتح القدير: ٤٨١/٤.
(٥٢) السيوطي، الإتقان: ٤٥٢.
(٥٣) ينظر زهير زاهد، في النص القرآني واساليب تعبيره: ٩٥.
(٥٤) زهير زاهد، في النص القرآني واساليب تعبيره: ٩٥.
(٥٥) سورة التوبة:من الآية ٣٨.
(٥٦) ابن جنبي، الخصائص:٢/ ١٥٩.
(٥٧) ينظر م.ن: ٢/ ١٦٥.
(٥٨) زهير زاهد، في النص القرآني واساليب تعبيره: ٩٥-٩٦.
(٥٩) ينظر الزمخشري، الكشاف: ٢٥٨/٢-٢٥٩.
(٦٠) ينظر الطبرسي، مجمع البيان: ٥/ ٤٧.
(٦١) ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٩٥/١٠.
(٦٢) سيد قطب، التصوير الفني في القران: ٧٨.
(٦٣) ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير: ١٠/ ٩٢.
(٦٤) ينظر الزمخشري، الكشاف: ٢٥٨/٢-٢٥٩.
(٦٥) ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير: ١٠/ ٩٥.
(٦٦) ينظر م.ن: ١٠/ ٩٥.
(٦٧) ينظر عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن : ١٠٥.
(٦٨) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن : ٧٨.
(٦٩) تمام حسان، البيان في روائع القرآن: ٢٠٣.
(٧٠) ينظر ابن جني، الخصائص، مقدمة المحقق: ١/ ٤٥.
(٧١) سورة الطور:الآيات ١١-١٣.
(٧٢) زهير زاهد، في النص القرآني واساليب تعبيره: ٩٦.
(٧٣) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن: ٨١.
(٧٤) ينظر الزمخشري، الكشاف: ٤١٢/٤.
(٧٥) ينظر عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن: ١٠٥.
(٧٦) ينظر م.ن: ١٠٥.
(٧٧) ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٢٧/ ٥٨.
(٧٨) ينظر عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن: ١٠٥.
(٧٩) سورة الشعراء:الآيات ٩١-٩٤.

(٨٠) ينظر زهير زاهد، في النص القرآني واساليب تعبيره: ٩٨. وأبو عبد الرحمن اليزيدي، تفسير غريب القرآن : ٤١٨. وابن منظور ، لسان العرب {مادة كب } : ٢/ ١٩٠.
(٨١) زهير زاهد، في النص القرآني واساليب تعبيره: ٩٨.
(٨٢) الزمخشري،الكشاف:٣٢٢/٣.
(٨٣) ابن دريد، جمهرة اللغة {مادة كب} : ١/ ٣٧. وينظر ابن فارس، مقايس اللغة { مادة كب}: ١٢٤/٥
(٨٤) الراغب الاصفهاني، مفردات غريب القرآن: ٦٩٥.
(٨٥) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن: ١١٥.
(٨٦) سورة الشمس:الآيتان ١٣-١٤.
(٨٧) زهير زاهد، في النص القرآني : ٩٨-٩٩.
(٨٨) ابن دريد، جمهرة اللغة {مادة دم } : ١/ ١٤٢. وابن منظور، لسان العرب { مادة دمم } : ١٢/ ٢٠٩. وابن فارس، مقاييس اللغة { مادة دم } : ٢/ ٢٦٠.
(٨٩) الطوسي، التبيان: ١٠/ ٣٦٠-٣٦١. وينظر الزمخشري، الكشاف: ٧٦٤/٤. والطبرسي، مجمع البيان: ٧٥٦/١٠. والشوكاني، فتح القدير: ٥٩٤/٥.
(٩٠) القرطبي، الجامع لاحكام القران:٢٠/ ٧٩.
(٩١) ينظر زهير زاهد، في النص القرآني واساليب تعبيره: ٩٩.

قائمة المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم.
١.ابن الأثير،أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد-المثل السائر-تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد،مطبعة المكتبة المصرية،بيروت-لبنان،الطبعة الثانية١٤١٩ه-١٩٩٨م.
٢.احمد فارس الشدياق-الساق على الساق في ماهي الفَارياق-قدم له وعلق عليه:الشيخ نسيب وهيبة الخازن،منشورات دار مكتبة الحياة-بيروت،الطبعة الأولى ١٢٧٠ه،١٨٥٥م.
٣.إبراهيم أنيس-دلالة الألفاظ-مكتبة الانجلو المصرية،الطبعةالسابعة١٩٩٣.
٤.تمام حسان البيان في روائع القرآن-عالم الكتب،القاهرة-مصر،الطبعة الثانية١٤٢٠ه-٢٠٠٠م.
٥.جرجي زيدان-الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية-مراجعة وتعليق:مراد كامل،دار الحداثة،بيروت-لبنان،الطبعة الثانية١٩٨٢م.
٦.ابن جني:أبو الفتح عثمان بن جني-الخصائص-تحقيق:محمد علي النجار،قدم هذه الطبعة:د.عبد الكريم راضي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،الطبعة الخامسة٢٠١٠م.

المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها-تحقيق:علي الجندي ناصف ود.عبد الحليم النجار ود.عبد الفتاح إسماعيل شلبي،القاهرة-مصر١٩٦٩م.
٧.ابن دريد،أبو بكر بن حسن الأزدي البصري-جمهرة اللغة-دائرة المعارف،بلدة حيدر آباد الدكن،الطبعة الاولى١٣٤٤ه.
٨.الراغب الأصفهاني،أبو القاسم الحسين بن محمد-المفردات في غريب القرآن-تحقيق:محمد سيد كيلاني،مطبعة دار المعرفة،بيروت-لبنان.
٩.الزمخشري،أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري-الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل-تحقيق:عبد الرزاق المهدي،دار إحياء التراث العربي،بيروت-لبنان،الطبعة الاولى١٤١٧ه-١٩٩٧م.
١٠.زهير زاهد-في النص القرآني وأساليب تعبيره-مؤسسة دار الصادق الثقافية،بابل-العراق،الطبعة الاولى١٤٣٣٣ه-٢٠١٢م.
١١.ستيفن اولمان-دور الكلمة في اللغة-ترجمة:كمال بشر،دار غريب،القاهرة-مصر،الطبعة الثانية عشرة١٩٩٧م.
١٢.سيبويه،أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر-الكتاب-تحقيق:عبد السلام محمد هارون،دار الجيل،بيروت-لبنان،الطبعة الأولى.
١٣.سيد قطب-التصوير الفني في القرآن-دار الكتب الإسلامي،قم المقدسة١٤١٢ه.
١٤. سيروان عبد الزهرة الجنابي: مناهج تفسير النص القرآني – دراسة في النظرية والتطبيق، مطبعة الصادق- عمان، ط١، ٢٠١٣م.
١٥.السيوطي،جلال الدين عبد الرحمن-الإتقان في علوم القرآن-تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم،منشورات الشريف الرضي،بيدار-عزيزي١٣٨٧ه-١٩٦٧م.
المزهر في علوم اللغة وأنواعها-تحقيق:محمد احمد جاد المولى وآخرون،دار إحياء الكتب العربية،الطبعة الثالثة.
١٦.الشوكاني،محمد بن علي بن محمد-فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير-مؤسسة الريان،بيروت-لبنان،الطبعة الثالثة١٤٢٣ه-٢٠٠٢م.
١٧.صبحي الصالح-دراسات في فقه اللغة-دار العلم للملايين،بيروت-لبنان،الطبعة السادسة عشرة٢٠٠٤م.
١٨.الطبرسي،أبو علي الفضل بن الحسن-مجمع البيان في تفسير القرآن-تحقيق:هاشم الرسول المحلاتي وفضل الله اليزيدي الطباطبائي،دار المعرفة ،بيروت-لبنان،الطبعة الاولى١٤٠٦ه-١٩٨٦م.

١٩.الطوسي،أبو جعفر محمد بن الحسن-التبيان في تفسير القرآن-تحقيق:احمد حبيب قصير العاملي،دار إحياء التراث العربي،بيروت-لبنان.
٢٠.ابن عاشور،محمد بن طاهر بن عاشور-التحرير والتنوير -مؤسسة التاريخ،د.ط،د.ت.
٢١.عبد الحميد احمد يوسف هنداوي-الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم(دراسة نظرية تطبيقية التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة) المكتبة العصرية،صيدا،بيروت-لبنان،١٤٢٩ه-٢٠٠٨م.
٢٢.عبد الكريم مجاهد-الدلالة اللغوية عند العرب-دار الضياء-عمان،د.ط،د.ت.
٢٣.عمر السلامي-الإعجاز الفني في القرآن الكريم-نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم عبد الله،تونس١٩٨٠م.
٢٤.غازي طليمات-نظرات في علم دلالة الألفاظ عند احمد بن فارس اللغوي-حوليات كلية الآداب،تصدر عن مجلس النشر العلمي-جامعة الكويت،الحولية الحادية عشرة،الرسالة الثامنةوالستون١٤١٠ه-١٩٩٠م.
٢٥.ابن فارس،أبو الحسن احمد بن فارس بن زكريا-مقاييس اللغة-تحقيق:عبد السلام محمد هارون،مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي-ايران١٤٠٤ه.
٢٦.القرطبي،أبو عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي-الجامع لأحكام القرآن-صححه:احمد عبد العليم البردوني،دار إحياء التراث العربي،بيروت-لبنان،الطبعة الثانية١٣٧٢ه-١٩٥٢م.
٢٧.كاصد ياسر الزيدي-فقه اللغة العربية-مديرية دار الكتب للطباعة والنشر-جامعة الموصل١٤٠٧ه-١٩٨٧م.
٢٨.محمد الأنطاكي-الوجيز في فقه اللغة-دار الشرق،الطبعة الثانية١٣٨٩ه-١٩٦٩م.
٢٩.محمد حسين آل ياسين-الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري-منشورات دار مكتبة الحياة،بيروت-لبنان،الطبعة الاولى١٤٠٠ه-١٩٨٠م.
٣٠.محمد مبارك-فقه اللغة وخصائص العربية-دار الفكر،بيروت-لبنان،الطبعة السادسة١٩٧٢م.
٣١.مصطفى مندور-اللغة بين العقل والمغامرة-منشأة المعارف،الإسكندرية مطبعة أطلس،التوفيقية-القاهرة.
٣٢.ابن منظور،أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور-لسان العرب-نشرأدب الحوزة-قم-ايران١٤٠٥ه.
٣٣.هادي نهر-الحروف والأصوات العربية في مباحث القدماء والمحدثين(بحث منشور)مجلة آداب المستنصرية العدد ٨ سنة١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.